ملامح مِن الأنثروبولوجيا الإغناطيّة

الأب فاضل سيداروس اليسوعيّ°

نشرنا في عدد سابق من مجلّة المشرق دراسة في فنّ التربية الإغناطيّة، تتعلّق بالإنسان أيًا كان مُعتقده الدينيّ[1]. ونودّ في هذا المقال مُتابعة دراستنا من زاوية أُخرى، وهي الحديث عن الإنسان المسيحيّ في علاقته مع الله. فحديثنا أنثروبولوجيّ أكثر منه تربويّ، فهو أشمل، وإن كان أضيق لأنّه يتناول المسيحيّ، ولا سيّما الإنسان الإغناطيّ في علاقته مع الله. ويجدر بنا أن نُشير إلى أنّ دراستنا هذه تندرج في دراسة أشمل في «الرياضات الروحيّة» الإغناطيّة، تُنشر قريبًا في دار المشرق.

لم يقصد إغناطيوس قطُّ عرضَ نظريّة أنثروبولوجيّة، ولم يدّعِ يومًا ما تعميم مسيرته الروحيّة، بل اكتفى بأن يعرض خبرته الروحيّة في كتاب «الرياضات الروحيّة»، نُزولًا منه عند رغبة الذين كان يعقد معهم أحاديث روحيّة، أو عند الذين مارسوا بإرشاده «الرياضات الروحيّة».

وإنّنا نعتبر، من جهتنا، أنّ لإغناطيوس نظرة خاصّة إلى المسيحيّ في علاقته بالله، تتميّز عن سواها من النظرات المسيحيّة. وفي ذلك يكمن غنى «المواهب الروحيّة» (باليونانيّة Charismata)، فهي مُتعدِّدة لِبُنيان الكنيسة،

---

(٥) مُعلِّم المُبتدئين اليسوعيّين في الشرق الأدنى، وأُستاذ اللاهوت العقائديّ واللاهوت الروحيّ في كُلّيّة العُلوم الدينيّة بالسكاكينيّ – القاهرة.

(١) سِرُّ الرهبانيّة اليسوعيّة في فنّ التربية – المشرق – السنة ٦٥ – ١٩٩١ – ص ٥٥-٨٧.

وإن كان الروح واحدًا. فسنُحاول أن نوضح أهمّ ملامح «الموهبة الروحيّة» الإغناطيّة في ما نحن بِصدده.

وسنعتمد أساسًا في هذه الدراسة على نصّ «الرياضات الروحيّة»، فهي تُدوِّن زُبدة خبرة إغناطيوس التصوُّفيّة والروحيّة، وقد استخدمها مع العديد من رُفقائه ومُعاصريه، وتركها أداةً مُميَّزة للمسيرة الروحيّة، وفيها تسطع نظرته إلى الإنسان في صلته بالله. وسندع النصوص نفسها تتحدّث إلينا وتُخاطبنا. إلاّ أنّنا سنستعين بسائر مُؤلّفاته، دعمًا لِنظرته الأنثروبولوجيّة[٢].

وسنتناول الموضوع من ثلاث زوايا مُتكاملة: الرغبة في الله، ثُمّ الاتّحاد بالله، وأخيرًا التواضع المُحبُّ لله.

الإنسان الإغناطيُّ ورغبته في الله

يحمل الإنسان الإغناطيُّ في داخله رغبات تدفعه إلى العلاقة الوطيدة مع الله ومع البشر. فإن كان للإنسان ذاكرة وعقل وإرادة - بحسب تقسيم أوغسطينس قِوى النفس - أو كان لديه عقل ووِجدان وإرادة - بحسب تقسيمنا المُعاصر - فهو أوّلًا - في نظر إغناطيوس - رغبة، ولقد وَصف إغناطيوس نفسه بأنّه «رجل رغبات»، وتحدّث هو عن «الرغبات المقدّسة»[٣].

---

(٢) الرموز المُستخدمة:
ر ر = الرياضات الروحيّة - دار المشرق - بيروت - ط ٣ ١٩٩٥.
ذ ش = الذكريات الشخصيّة - دار المشرق - بيروت - ط ٢ ١٩٩٦.
ق ت = القوانين التأسيسيّة - دار المشرق - بيروت - ١٩٩٠.
ي ر = اليوميّات الروحيّة - لم تُنشر الترجمة العربيّة حتّى اليوم
ر = الرسائل - لم تُنشر الترجمة العربيّة حتى اليوم.

(٣) تواتُر لفظ رغبة (بالإسبانيّة: Deseo) ورغِب (إمّا Desear، وإمّا Querer):
ر ر: ٥٦ مرّة - ذ ش: ٢٧ مرّة - ق ت: ٣٢ مرّة.
مضمون الرغبة في ق ت: السير وراء المسيح المُذَلّ: ٢ - خدمة الله: ٣ - القيام بالرسالة: ٤ - التقدّم والكمال: ١١ - دُخول الرهبانيّة: ٣...

مضمون الرغبة في الله

إذا تساءلنا ما هي أُنطولوجيّة الرغبة – في نظر إغناطيوس – أقررنا أنّ الله منبعها وغايتها. فالله، إذ يخلق الإنسان، يجذبه إليه. فالرغبة في الله هي من صميم فعل الله وهو يخلق الإنسان. كتب إغناطيوس أنّ الله يجذب النفس إليه، فهو «مصدر رغباتنا» (ق ت ٧٩٠)، وهو موضوعها:

«... جاذبًا إيّاها بكُلّيّتها على حُبّ عِزّته الإلهيّة» (رر ٣٣٠، ر ٥٣). وإنّه يصف أثر هذا الانجذاب في شخصه:

«شعرتُ شُعورًا باطنيًّا بأنّي ذاهب أو مُنقاد أمام الله
وفي هذه الحركة، انتصابُ شعر رأسي
وتأثّر شبيه بحرارة في الجسم كُلّه» (ي ر ٨).

وهو يدعو المُتروِّض إلى أن يختبر ما اختبره هو نفسه:

«أتذوّق بالذوق...
ما للألوهيّة من حلاوة وعُذوبة لا حدّ لهما» (رر ١٢٤).
«ما يُرضي النفس ويُشبعها ليست المعلومات الغزيرة
وإنّما هو الشعور بالأشياء والتذوُّق الباطنيُّ بها» (رر ٢).

فالإنسان الإغناطيُّ مدعوٌّ إلى أن يتذوّق الله وحُضوره، وعمله ونعمته، وإن أوصى إغناطيوس بالبصيرة والحكمة في هذا الشأن، تحاشيًا لخطر «الاستنارِيّين»[٤].

ويستخدم إغناطيوس لفظًا آخر، وهو الوجدان[٥]. ولا ينحصر معنى هذا المصطلح في المشاعر والعواطف والأحاسيس – فهي جزء منه ولكنّها لا تستوفيه – بل يتعدّاها ليُفيد بمعنى بُعد أساسيٍّ في الإنسان يتضمّن

---

(٤) تذوّق (بالإسبانيّة Gustar: ٣ مرّات في رر: تذوُّق (Gusto): ٦ مرّات. Alumbrados: حركة مُعاصرة لإغناطيوس كانت تُركّز بإفراط على هذه النوعيّة من العلاقة مع الله. فكانت السلطات الكنسيّة حذرة تُجاهها، بل وكانت تُقاومها، وكثيرًا ما استدعت إغناطيوس لتستجوبه في هذا الشأن.

(٥) بالإسبانيّة: Afección، وباللاتينيّة: Affectus: ٣٠ مرّة في رر.

الشعور الروحيّ والحسّ الروحيّ.

ويعود هذا المصطلح إلى القدّيس بِرْنارْدُس (١٠٩٠-١١٥٣) المتصوِّف ومُصلح الحياة الرهبانيّة البِنِدِكْتِيّة (١١١٥)، وقد قاوم الفيلسوف اللاهوتيّ بيير أبيلار (١٠٧٩-١١٤٢) في نزعته العقلانيّة، إذ أعاد للحياة الروحيّة بُعدَهَا الوجداني الذي يتقدّس بفضل تغلغُل الإنجيل فيه. وعمّم ذلك تيّار «التقوى الحديثة» (Devotio Moderna) المعاصر لإغناطيوس، فتأثّر بها ودمجها في بنيته الروحيّة. كما أنّه تأثّر بما قصده القدّيس أوغسطينس (٣٥٤-٤٣٠) بلفظ «الإرادة» التي تشمل البُعد الإراديّ نفسه، ممزوجًا بالوجدان. هكذا فإنّنا نجد إغناطيوس في مُلتقى تيّارين يُوليان الوجدان أهمّيّة بالغة سواء في الحياة الروحيّة أم في الحياة النفسيّة.

تربية الوجدان في «الرياضات الروحيّة»

هذا وقد اعتبر العديد من المُفسِّرين أنّ «الرياضات الروحيّة» مدرسة لتربية الوجدان[٦]. فلنحاول أن نستشفّ ذلك من خلال مختلف مراحلها:

اعتبر إغناطيوس الوجدان أو الرغبات البشريّة مُزدوجة الاتّجاه، فقد تُفضي بالإنسان إلى الخير، وقد تُؤدّي به إلى الشرّ، وقد تُساعده على بُلوغ غايته، ألا وهي الله فهي خير، وقد تحُول دون ذلك فهي شرّ (رر ٢٣). لذلك فقد عَنْوَن «الرياضات الروحيّة»، مُعبِّرًا عن هدفها، على النحو التالي:

«رياضات روحيّة ليتغلّب الإنسان على نفسه

ويُنظِّم حياتِه بدون أن يتّخذ قرارًا بناء على كلّ ميل غير مُنظَّم (٢١).

فالمُيول والرغبات البشريّة مُزدوجة المعنى، فقد تكون «غير مُنظَّمة»[٧]، لذلك فإنّ مسيرة «الرياضات الروحيّة» تهدف إلى أن تُصبح

---

(٦) ومدرسة لتربية الحرّيّة أيضًا. ويستدعي هذا الجانبُ دراسةً أنثروبولوجيّة مُنفصلة.

(٧) بالإسبانيّة: الصفة Desordenado: واردة ١٠ مرّات في رر.
الاسم: Desorden: ٣ مرّات - الحال («بوجه غير مُنظَّم»): Desordenadamente: مرّة واحدة.

«مُنظَّمة»[٨].

وتتنظم هذه الرغبات والميول منذ «المبدأ والأساس» (٢٣)، حيث الإنسان أمام الله خالقه كمصدر وغاية ومرجع لحياته، وحيث المخلوقات سبيلٌ للوُصول إليه تعالى، أو عائقٌ دون ذلك. وبالتالي فعلى الإنسان أن يكون «غير مُنحاز» إلى الخليقة، أي - بلُغتنا المُعاصرة - أن يكون حُرًّا حُرِّيّة داخليّة تجاه المخلوقات، فيستخدمها إن أوْصَلَتْه إلى الله، ويتجنّبها إن أحالته دُون ذلك. هذه هي الحُرِّيّة الداخليّة تجاه المخلوقات - أو «عدم الانحياز» إليها - فهي تُطهِّر الوجدان من الرغبات والميول غير المُنظَّمة.

وفي «الأُسبوع الأوّل» (٤٥-٩٠) حيث التأمُّل في الخطايا، يختبر الإنسان تطهير وجدانه، بل وخلاصَه، من خلال تأمُّله في كلمة الله التي تكشف له خطاياه ومدى مُساومته لها، ومن خلال نيله سرّ المُصالحة الذي يُحرِّره من سُلطان الخطيئة. فإنّه يختبر حُبّ الله وقد تجسّد ومات على الصليب من أجله ليُخلِّصه، بعد أن يكون قد طلب نعمة «الشعور الباطنيّ» بخطاياه، و«توجُّعًا عظيمًا شديدًا ودُموعًا». فللوجدان إذًا دور مُهمٌّ في هذه المرحلة.

وفي «الأُسبوع الثاني» (٩١-١٨٩) حيث المشاهدة في أسرار حياة المسيح (٢٦٢-٢٨٨)، يتبدّل ذِهن الإنسان تبدُّلًا تدريجيًّا، وذلك بِـ «معرفته الباطنيّة» للمسيح، كما تتبدّل إرادته بـ «تمييزه» إرادة الله عليه حتّى يتمّ «اختياره» إيّاها. ومن خلال ذلك يتبدّل وجدانه، إذ «يتذوّق» أسرار حياة المسيح من جهة، ويكتشف من جهة أُخرى مشيئة الله بتعاقُب الشعور الروحيّ بـ «الانبساط» و«الانقباض». وإن حدث أن اكتشف مشيئة الله، لا عن طريق وجدانه، بل عن طريق عقله، فعلى وجدانه أن يُصدِّق ما توصّل إليه عقله. فإن اختبر «الانبساط الروحيّ» بعد قراره بالعقل، كان ذلك بمثابة تصديق الوجدان عليه، وإن اختبر «الانقباض الروحيّ» بعد

---

(٨) الاسم Orden: وارد مرّة واحدة - الفعل Ordenar: ١١ مرّة - الحال («بوجه مُنظَّم») Ordenadamente: مرّتَين اثنتين.

قراره بالعقل، كان ذلك بمثابة عدم تصديق الوجدان عليه. والله «يُثبِّت» «الاختيار» بمنحه الوجدانَ «الانبساطَ الروحيّ».

وفي «الأسبوع الثالث» (١٩٠-٢١٧) حيث مشاهدة أسرار آلام المسيح وصلبه وموته (٢٨٩-٢٩٨)، يتعمّق الإنسان في العلاقة مع المسيح، إذ يطلب نِعمة «التوجُّع والندم والخجل»، و«التوجُّع والحُزن والدموع»، لأنّ «الربّ ماضٍ إلى الآلام من أجل خطاياي». فيجتهد الإنسان من جهته أن يُبادل المسيح شُعوره: «ما عليّ أن أعمله وأتحمّله في سبيله»: «أن أتوجّع مع المسيح المُتوجِّع، وأن يتمزّق قلبي مع المسيح المُتمزِّق القلب، وأن أسكب الدموع وأشعر بالعذاب الباطنيّ بسبب كلّ ما احتمله المسيح من عذاب لأجلي»، و«أن أُثير في نفسي الحُزن والتوجُّع على شدّة الألم والعذاب التي يُقاسيها المسيح ربُّنا»، و«أن أُعيد إلى ذاكرتي مِرارًا ما احتمله المسيح ربُّنا من مشقّات وأتعاب وأوجاع، من ساعة ميلاده حتّى سِرِّ الآلام حيث أنا الآن». هكذا، فإنّ الإنسان يدخل في علاقة أعمق وأكثر استبطانًا مع شخص المسيح، لا في علاقة «الاقتداء» و«الاتّباع» فقط - كما كان الأمر في الأُسبوع الثاني - بل في علاقة التطابُق مع المسيح، وذلك على مُستوى الوجدان الذي تطهَّر في المراحل السابقة من المسيرة الروحيّة.

ويُكمِّل «الأُسبوع الرابع» (٢١٨-٢٢٩) هذه المسيرة الوجدانيّة حيث الاشتراك في أسرار قيامة المسيح وصُعوده (٢٩٩-٣١٢)، فطلبُ نعمة الشعور «شعورًا شديدًا بالابتهاج والفرح لكُلِّ ما للمسيح من مجد وفرح»، ونعمة «التأثُّر والشعور بالابتهاج بكُلِّ ما للمسيح ربُّنا من فرح وابتهاج»، فالسعي إلى ما «يُثير السعادة والابتهاج والفرح الروحيّ كالمجد».

وإنّ «المُشاهدة لِبُلوغ الحُبّ» (٢٣٠-٢٣٧) تتمحور حول الحُبّ، وهي تختم المسيرة الروحيّة في أثناء الرياضة لينطلق الإنسان إلى حياته العمليّة بِحُبِّه لله، لِيُحبّه فيها، كما سنراه لاحقًا.

فللوجدان مكانة مرموقة في مسيرة «الرياضات الروحيّة»، فهي بمثابة

مدرسة لتربيته حقًّا، ولا سيّما لتربية رغباته وميُوله ومشاعره.

الخُلاصة

لا ينحصر معنى الرغبة في الله في مشاعر وأحاسيس وعواطف - وإن استعانت بها وعبّرت عنها. فالرغبة قد تطهّرت وتربّت ونمت في سبيل اتّخاذ قرار - يُسمّيه إغناطيوس «الاختيار» - يُطابق مشيئة الله، وفي سبيل العمل بِمُوجب هذا «الاختيار». وهذا ما تراه الآن من خلال الإرادة المُقرَّرة والمُنفِّذة لِمشيئة الله.

فإن كان الوجدان قد تحرّر «من حُبّ نفسه وإرادته الشخصيّة ومصلحته الخاصّة»، فإنّه

«لا يرغب ولا يطلب في كُلّ شيء وفي جميع أعماله

إلاّ تسبيح الله ربّنا تسبيحًا أعظم، وتمجيده تمجيدًا أعظم» (رر ١٨٩).

الإنسان الإغناطيُّ واتّحاد إرادته بالله

توحي عبارات «الرغبة» و«التذوُّق» و«الوجدان» و«المُيول»... بالاتّحاد بالله. فهذا ما يصبو إليه الإنسان الإغناطيُّ وما يُعبِّر عنه إغناطيوس في بداية مسيرة «الرياضات الروحيّة» (رر ١٥):

«يُشرك الخالقُ والسيّد النفس الأمينة في ذاته

مُعانِقًا إيّاها في حُبّه وتسبيحه

وجاعلًا إيّاها مُتأهّبة للطريق التي يُمكنها أن تُؤدّي له فيها أفضل خِدمة».

والجدير بالذكر أنّ تعبيرًا مثل «المُعانقة في الحُبّ» نادر جدًّا عند إغناطيوس. فالجوُّ السائد في كتاباته بعيد عن «العرض الروحيّ» للتعبير عن الاتّحاد بالله، على خلاف ما أنشده مُتصوِّفو جميع العصور. ورغم ذلك، فإنّ إغناطيوس مُتصوِّف، ولكنّ اختباره الروحيّ وبالتالي تعابيره الروحيّة

مختلفة عنها عند مُعظم المُتصوِّفين[٩].

فكيف يتمُّ الاتِّحاد بالله في حياة الإنسان الإغناطيّ؟

إشكاليّة الاتِّحاد بالله الإغناطيّة

إنّ ما يُميِّز روحانيّة إغناطيوس عن سواه من المُتصوِّفين والروحانيِّين - في ما نحن بصدده - أنّ الاتِّحاد بالله يتحقّق باتِّحاد الإرادة البشريّة بالمشيئة الإلهيّة، حتّى إنّ «الرياضات الروحيّة» ترمي - في نهاية الأمر - إلى «البحث عن إرادة الله» (١٥) من خلال «تمييزها» فـ «اختيارها» (١٧٥-١٨٩). فمسيرة «الرياضات الروحيّة» هي بالفعل «بحث» عن إرادة الله و«اكتشافها» و«اختيارها» بُغية «تنفيذها»[١٠]. حينذاك تتّحد إرادة الإنسان بإرادة الله اتِّحادًا كُلّيًّا لا يقلُّ قيمة عن اتِّحاد المُتصوِّفين بالله عن طريق الصلاة.

ولهذا السبب، فقد احتار الروحانيُّون في شأن الطرق الروحيّة الثلاثة التقليديّة - من تطهير واستنارة واتِّحاد - عند إغناطيوس. أمّا التطهير، فيتحقّق في الأسبوع الأوّل بالخلاص من الخطيئة. وأمّا الاستنارة، فتتحقّق في الأسبوع الثاني، من خلال مشاهدة أسرار حياة المسيح فالتماس نعمة «معرفة باطنيّة للربّ» (١٠٤)، وكذلك من خلال «معرفة حِيل الرئيس الشرِّير... ومعرفة الحياة الحقّ التي يُعلِّمها القائد الأعظم الحقيقيّ» (١٣٩). وقد جمع إغناطيوس هاتين المرحلتين من دون ذكر مرحلة الاتِّحاد:

«اعتاد عدوُّ الطبيعة البشريّة أن يُجرِّب خاصةً بظواهر الخير مَن كان يتمرّن في حياة الاستنارة الخاصّة برياضات الأسبوع الثاني

---

(٩) في اختبارات إغناطيوس التصوُّفيّة، راجع ذ ش ٢٨-٣١، ٩٦، ٩٩-١٠٠.

(١٠) تواتُر بحث: ١٤ مرّة - وجد: ٣٩ مرّة - ميّز تمييزًا: ٣ مرّات - قرّر قرارًا: ١٣ مرّة - إرادة الله: ٦ مرّات - إرادة المسيح: مرّة واحدة - إرادة الإنسان: ١٤ مرّة - الإرادة: ٣ مرّات - أراد: ٨٠ مرّة.

وأن يُجرِّب أحيانًا في حياة التطهير الخاصّة برياضات الأسبوع الأوّل».
فأين تقع مرحلة الاتّحاد بالله؟

إنّ مرحلة بحث/ اكتشاف/ اختيار/ تثبيت/ تحقيق مشيئة الله هي مرحلة الاتّحاد بالله. وإنّ هذا الأمر لَمفهوم، إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ الروحانيّة الإغناطيّة روحانيّة خدمة للبشر، وجهاد مع الله جهاد الكنيسة نفسها لمُقاومة «عدوّ الطبيعة البشريّة» (٣٥٢-٣٧٠). لذلك، فإنّ الاتّحاد اتّحاد مشيئتين، أكثر منه اتّحاد «قلبين» في «عُرس روحيّ». فخدمة الخادم في المُجتمعات البشريّة تعبير عن حُبّه لله، فإنّه يُضحّي بما يتأتّى له من فرح الاتّحاد من خلال الصلاة الطويلة، ليخدم الله بخدمته للبشر. وفي ذلك يكمن الفرق بين الروحانيّات التصوُّفيّة «الخادمة» أو «الرسوليّة» (Apostoliques)، والروحانيّات التصوُّفيّة «المُتعبِّدة» أو «المشاهدة» (Contemplatives). فبينما هذه تصبو إلى الاتّحاد بالله من خلال الصلاة والعبادة والتأمُّل أساسًا، تصبو تلك إلى الهدف عينه ولكن عن طريق الخدمة في المجتمعات البشريّة، وإن لم تَخْلُ من بُعد الصلاة. وفي ما تُعبِّر هذه عن اتّحادها بالله بتعابير العُرس الروحيّ واتّحاد القلبين، تُعبِّر تلك بتعابير الخدمة واتّحاد الإرادتين، الإرادة البشريّة المُتمِّمة للإرادة الإلهيّة، بقدر ما تستدعي حياة الخدمة طاقات إرادة الإنسان الحُرّة.

وخُلاصة القول إنّ الروحانيّة الإغناطيّة روحانيّة تَطابُق الإرادة البشريّة مع الإرادة الإلهيّة، تمثُّلًا بما عاشه يسوع نفسه في بُستان الزيتون:
«يا أبتا... لا تكن إرادتي أنا، بل إرادتك أنت.
وأخذه الجهد فأمعن في الصلاة» (رر ٢٩٠).

فتطابُق الإرادتين يفترض الصلاة إلى الله من جهة، والجهد البشريّ من جهة أُخرى. حينذاك فقط
«إذ يجري البحث عن إرادة الله...
يُشرك الخالقُ والسيّد النفسَ الأمينة في ذاته
مُعانِقًا إيّاها في حُبّه وتسبيحه

جاعلًا إيّاها مُتأهّبة للطريق التي يُمكنها أن تُؤدّي له فيها أفضل خدمة» (١٥). يُثبّت هذا القول بُعد الوجدان الذي سبق أن تلمّسناه («مُعانقًا... في حُبّه») وبُعد الخدمة (أفضل خدمة) بقدر ما تتّسم الروحانيّة الإغناطيّة بخدمة البشر، مُعتمدة على ما رأينا من «تمييز» لإرادة الله بُغية «اختيارها»، في تطابق إرادة الإنسان معها.

وتُلخّص «اليوميّات الروحيّة» «تطابق إرادتي مع الإرادة الإلهيّة» (ي ر ١٨٩):

«بلغ بي الأمر أنّني توسّلتُ إلى يسوع
أن يجعل إرادتي تُطابق إرادة الثالوث الكُلّيّ القداسة
بما يظهر له الطريق الأفضل» (ي ر ٨٠).

فإذ يُؤكّد هذا القول تطابق الإرادتين، فإنّه يُضيف عُنصرين: وساطة يسوع - بالإضافة إلى ما سبق من تمثُّل به - وهي قُطب أساسيّ في صرح إغناطيوس الروحيّ، واتّجاه التطابق نحو «المزيد» (بالإسپانيّة: Más وباللاتينيّة: Magis وبالفرنسيّة: Davantage) وهو من أبرز سمات الروحانيّة الإغناطيّة.

وبوجه عامّ، فإنّ اتّخاذ قرار طبقًا لإرادة الله هو ثمر عمل الروح القدس من جهة، وتمييز الإنسان في الصلاة والتفكير والمُشاورة من جهة أُخرى:

«... بحسب إلهام مِسحة الروح القدس
أو إذا استحسن (الإنسان) الأمر ورآه مُناسبًا في الله عزّ وجلّ» (ق ت ٦٢٥).

فالروح القدس هو الذي يُلهم الإنسان بما يُناسب مشيئة الله الآب، فضلًا عن المسيح «ربّنا» وهو مرجع كُلّ شُعور وتفكير، في أثناء مسيرة تمييز إرادة الآب (٦٤ مرّة في ق ت).

ولمّا أدرك إغناطيوس أن تمييز الإنسان واتّخاذه قرارًا بمُوجبه قابلان للخطإ، فإنّه لم يستخدم في تمييزه تعابير جازمة، بل استخدم أفعالًا مثل:

«يبدو لي»، «يخال إليّ»، «أشعر أنّ»، «أظنُّ أنّ»...، أو عبارات مثل: «إنّه مُناسب أن»، «إنّه لائق أن»...؛ أو عبارات التفضيل: «من الأفضل أن»، من الأنسب أن»...، وذلك كُلّه في أُفق «المزيد». غير أنّه يدعو إلى اتّخاذ قرار حاسم واضح، رغم ما سبق من احتمال الخطإ، ورغم أنّ كُلّ قرار لا يخلو من روح المُجازفة والمُخاطرة والمُغامرة. وفي أثناء تنفيذ القرار، يمنح الله علامات تُفيد بأنّ الاختيار كان سليمًا، وهذا ما يُسمّيه إغناطيوس «التثبيت». فالإنسان «يُقدِّم» لله الاختيار، و«العزّة الإلهيّة تتنازل وتقبله وتُثبّته» (رر ١٨٣). ويتمُّ هذا «التثبيت» الإلهيُّ على صعيدين: وجدان الإنسان الذي يختبر «الانبساط الروحيّ» من لَدُن الله، وإرادة الإنسان المُضرَمة بِحُبّ الله في أثناء التنفيذ.

موضع الاتّحاد بالله

ولمّا كانت الروحانيّة الإغناطيّة روحانيّة خدمة في المُجتمعات البشريّة، فإنّ الاتّحاد بالله يتجانس مع هذه الروحانيّة. فإنّ «خدمة الله ربّنا» التي يُقرُّها «المبدأ والأساس» (رر ٢٣) تتحقّق في خدمة البشر. أو - بعبارة مُفارقةٍ - فإنّ الاتّحاد بالله لا يتمُّ بصعود الإنسان إلى الله والارتقاء نحوه، كما تتبنّاه مُعظم الروحانيّات. فلقد سُمّي يوحنّا السُّلّميُّ (+ حوالى ٦٤٩) بهذا الاسم، كما عُرف يوحنّا الصليب (١٥٤٢-١٥٩١) بِمُؤلّفه «صُعود الكرمل»، نظرًا إلى هذه الروحانيّة الارتقائيّة أو التصاعديّة المعتمدة على صعود المسيح عن يمين الآب لأنّ اليهود كانوا يعتبرون السماء مسكن الله.

وأمّا الروحانيّة الإغناطيّة، فاعتمادًا منها على تجسُّد «الكلمة الأزليّ» (رر ١٠١-١٠٩)، فهي روحانيّة انحداريّة أو تنازليّة، حيث ينزل الله من «كُرسيّه الملكيّ» أو من «عرش الجلال الإلهيّ» إلى عالم البشر (رر ١٠٦).

وبالتالي، فإذا أراد الإنسان الإغناطيُّ أن يتّحد بالله، فعليه أن «يتجسّد» هو الآخر في عالم البشر، وأن «ينزل» هو أيضًا نحو إخوته

البشر، وهكذا

«يزداد في أن يتّبع ربَّنا المُتمجِّد ويقتدي به» (رر ١٠٩).

فإنّه لا يجد الله فوق، في السماوات - «ما لكم قائمين تنظرون إلى السماء؟» (رسل ١/ ١١) - بل في أسفل، في الأرض، في عالم البشر - «كلُّ ما فعلتموه لأحد هؤلاء الصغار إخوتي، فلي قد فعلتموه» (متّى ٢٥/ ٤٠) -. فإنّه لا يتّحد بالله بالصعود، بل بالنزول. وإنّه لا يُرضي الله ولا يُتمِّم مشيته في الصلاة فحسب، إذ يرتفع هكذا نحوه، بل في الخدمة أيضًا، إذ ينزل - بعد صعوده في الصلاة - للقائه في وسط البشر. فإنّه لا يترك الله عندما يترك الصلاة ليذهب للخدمة، فلا يعود إليه إلاّ بعودته للصلاة. كلاّ، فإنّه لا يترك الله أبدًا، بل وإنّه «يُشاهد الله» (متّى ٥/ ٨) في البشر وفي وسطهم وفي خدمتهم، وقد تطهّر قلبه فأصبح «قلبًا نقيًّا» من خلال الصلاة من جهة، ومن خلال مُعاملته مع البشر من جهة أُخرى. ففي البشر، وفي الأرض، «يُظهر الله ذاته» له (Theophania)ظُهورًا مجيدًا في واقع الحياة اليوميّة. وكُلّما نزل الإنسان إلى أسفل، وتجسّد في ما هو أسفل، زادت إمكانيّة لقائه الله.

وعلاوة على أنّ الإنسان يخدم الله عندما يخدم البشر (متّى ٢٥/ ٤٠)، فإنّ الله يستخدم الإنسان ويُرسله: «اذهبوا في العالم كُلِّه...» (مر ١٦/ ١٥). فالله يستخدم الإنسان «المُتجسِّد» وقد أصبح «متأهِّبًا»[11] وأداةً طيِّعة بين يديه.

ومن هنا عبارات إغناطيوس المأثورة: إنّ الإنسان الإغناطيّ «مُشاهد الله في العمل» (Contemplatif dans l'action) ولا في الصلاة فقط. كذلك «البحث عن الله واكتشافه في كُلِّ شيء» (Chercher et trouver Dieu en toutes choses) ولا في الحياة الروحيّة فقط، و«حبُّ العزّة الإلهيّة وخدمتها في كُلِّ شيء» (En tout aimer et servir sa divine majesté) (رر ٢٣٣)، ولا

---

(١١) «تأهّب تأهُّبًا» (بالإسبانيّة: Disponer - Disposición): وارد ١٠ مرّات في رر - ٢٥ مرّة في ق ت.

في بعض الأُمور والمجالات فقط. وكُلُّ ذلك لأنّ الاتِّحاد بالله لا ينحصر في اتِّحاد النفس به من خلال الصلاة، بل يتجاوزها بالعمل معه والتعاون معه في سبيل خلاص البشر. فما من نزاع بين الصلاة والعمل في الصرح الإغناطيّ، فالاتِّحاد بالله يتحقّق بالصلاة وبالعمل معًا، ويتغذّى بهما معًا، ويُعبَّر عنه من خلالهما معًا. فالإنسان الإغناطيّ «يتحلّى» بـ «صفة أُولى» وصفها إغناطيوس في ق ت ٧٢٣ على النحو التالي:

«اتِّحاده الوثيق بالله ربِّنا وأُلفته الحميمة به تعالى
في الصلاة وفي جميع أعماله
لكي ينال من الله، كمن ينبوع كُلِّ خير...
قيمة عظيمة، وفعّاليّة شديدة لجميع الوسائل المُستخدَمة لِمُساعدة النُّفوس».

كما أنّ إغناطيوس وصف العلاقة مع الأشخاص على النحو الآتي:

«يطلبون الله في كُلِّ شيء
ويُجرِّدون أنفسهم - على قدر الإمكان - عن حُبِّ الخلائق كُلِّها
ويُوجِّهون أشواقهم جميعها نحو الخالق
فيُحبُّونه في جميع مخلوقاته، ويُحبُّونها جميعها فيه
كما تقتضيه إرادته الإلهيّة المُقدّسة» (ق ت ٢٨٨).

كما أنّ حبّ الآخرين هذا

«هو في سبيل الله... الذي يجعلني أُحبُّهم حُبًّا أكثر» (رر ٣٣٨).

هكذا، فإنّ الله هو مصدر الحبِّ البشريّ وغايته. هو في كُلِّ شيء - في حركة تنازليّة - وكُلُّ شيء هو فيه - في حركة تصاعديّة -.

ويتمُّ ذلك كُلُّه كثمر لحُضور الله وعمله في الإنسان:

«أُسمّي انبساطًا تلك الحالة التي فيها ينشأ في النفس
تأثُّر باطنيٌّ يحمل النفس على الاضطرام حُبًّا لخالقها وربِّها
فلا تعود تستطيع أن تُحبّ أيّة خليقة على وجه الأرض لِذاتها
بل في خالق جميع الأشياء» (رر ٣١٦).

الخلاصة

إنّ الطريق من الله إلى البشر، ومن البشر إلى الله، في جدليّة لا تعرف التوقُّف، هو طريق لامُتناهٍ، لأنّ الله لامُتناهٍ وقد خلق الإنسان لامُتناهيًا على صورته كمثاله. ولكن، قد يستشعر الإنسانُ الإغناطيُّ أحيانًا أنّ ثمّة هُوّة بين الله والبشر، ومسافة بينهما.

وهذا ما اختبره إغناطيوس نفسه عندما صرّح في «اليوميّات الروحيّة» أنّه اقترب من «كيان الله أو جوهره» (ي و ١٢١). ففي ذلك تكمن نزعة إغناطيوس، بل والإنسان الإغناطيُّ التصوُّفيّة التي تسمح له بأن يعود ثانية إلى البشر لخدمتهم، من دون أن يكتفي بالتنعُّم بالله.

هذه الهُوّة والمسافة، هذا الاختبار التصوُّفيُّ، هو مدار الفقرة القادمة.

الإنسان الإغناطيُّ وتواضُعه المُحبُّ لله

التواضع أمام الله

مَن هو هذا الإنسان الذي يرغب في الله ويتّحد به ويُطابق إرادته بإرادة الله؟ لا يتردّد إغناطيوس في اعتبار الإنسان المُتواضع. وينبغي لنا بادئ ذي بدء تعريف التواضع كما يفهمه إغناطيوس.

ليس التواضع - في مفهومه - الرغبة في الاختفاء، أو اختيار المكان الأخير، أو القيام بأعمال حقيرة، أو غيرها من الفضائل التي أبرزتها رُوحانيّات مُختلفة. ليس التواضع الإغناطيُّ فضيلة بقدر ما هو موقف الإنسان أمام الله، موقف الإنسان وهُو يعترف بأنّ الله هو خالقُه ومصدرُ جميع الخيرات، فلقد ختم إغناطيوس مسيرة «الرياضات الروحيّة» بهذا الاعتراف:

«جميع الخيرات وجميع المواهب تنحدر من علُ...

كما أنّ الأشعّة تنحدر من الشمس والمياه من الينبوع» (رو ٢٣٧).

فالتواضع الإغناطيُّ يُقِرُّ بهذا الاعتراف الإيمانيّ، بل ويعترف بأنّه ينحدر من الله، وبأنّه مخلوق من الله، وبأنّ الله هو المصدر والمنبع والأصل.

ويظهر ذلك جليًّا في ثمر ما يعتري الإنسان من «انقباض روحيّ»:

«لنتعلّم ونعرف معرفة حقيقيّة، بما في ذلك من شُعور باطنيّ
أنّه ليس في وُسعنا نحن أن نُحدث أو نحفظ
خُشوعًا واقرًا أو حُبًّا بالغًا أو دُموعًا أو أيّ انبساط روحيّ آخر
بل أنّ كُلّ شيء هُو هِبة ونِعمة من الله ربّنا.
ولئلّا نعتبر منّا ما هو آتٍ من غيرنا
فنرفع من شأن فكرنا حتّى الكبرياء أو المجد الباطل

ناسبين إلى أنفسنا الخُشوع أو سائر نتائج الانبساط الروحيّ» (رر ٣٢٢). وإنّ ميزة «الانقباض الروحيّ» هي أنّه يُعلّم الإنسان التواضع الحقيقيّ، أي الاعتراف بأنّ الله - ولا الإنسان - هو مصدر ومنبع وأصل كُلّ «انبساط روحيّ». فأمّا الكبرياء أو المجد الباطل فهو الاعتراف بعكس ذلك، أي بأنّ الإنسان هو المصدر والمنبع والأصل.

وهذه هي خطيئة الملائكة كما يشرحها إغناطيوس:

«بعد أن خُلقوا في حالة النِّعمة
لم يُريدوا أن يستخدموا حُرّيّتهم ليُؤدُّوا التكريم والطاعة لخالقهم وربِّهم
فسقطوا في الكبرياء وانتقلوا من حالة النِّعمة إلى حالة الفساد» (رر ٥٠).

وكذلك، فإنّ «خطيئة أبوينا» آدم وحوّاء هي عدم طاعتهما لوصيّة الله:

نُهيا عن الأكل من شجرة المعرفة، فأكلا وكانت هذه خطيئتهما» (رر ٥١). فإنّ «شجرة المعرفة» هي رمز للاعتراف بسيادة الله وحده، ولا بسيادة الإنسان المخلوق من الله والخاضع له. وهذا ما لم يعترف به

أبوانا، بل و«أيُّ إنسان» (رر ٥٢)، وهو أنا.

فالكبرياء - وهو نقيض التواضع - تظهر في فعلين: عدم الطاعة لله وعدم التكريم له. ويجدر بنا أن نذكر أنّ غاية الإنسان، في مفهوم إغناطيوس، وقد عبّر عنها في «المبدأ والأساس» (رر ٢٣) إنّما هي أنّ «الإنسان يُخلق ليُسبِّح ويُكرِّم ويخدم الله»

ومن ضمن الأفعال الثلاثة المذكورة، يختصّ فعل «التكريم» بالاعتراف بأنّ الله هو الخالق وبأنّ الإنسان هو المخلوق. فإنّما التواضع هو - في نهاية الأمر - الاعتراف بأنّ الله هو الله - الخالق -، وبأنّ الإنسان هو الإنسان - المخلوق - المدعوُّ إلى أن يُؤدّي لله خالقه كُلّ تسبيح وتكريم وخدمة وطاعة. والإنسان يختبر في حياته «التواضع التكريميّ» (ي ر ١٦٤) و«التكريم والاحترام» لله (٢٠ مرّة في ي ر)[١٢]. وبناء على ذلك، فقد عرّفنا التواضع أنّه موقف الإنسان المخلوق أمام الله خالقه، أكثر منه فضيلة.

التواضع المُحبُّ لله

ولم يتوقّف إغناطيوس عند هذا الحدِّ في مفهومه للتواضع. ففي «اليوميّات الروحيّة» تحدّث عن «الاحترام المُحبّ» (١٨٧) و«التواضع المُحبّ» (٦ مرّات)، قاصدًا علاقة المخلوق بخالقه المذكورة، مقرونة بالحُبّ وهو ثمرة مسيرة «الرياضات الروحيّة». فيختمها إغناطيوس، إذ يعرض على المُتروّض «مُشاهدة لبُلوغ الحُبّ» (رر ٢٣٠-٢٣٧).

فإنّ الإنسان الإغناطيّ يعترف بوضعه المُزدوج: بمرتبته الحقيقيّ كخليقة الله - وهذا هو التواضع والاحترام - مدفوعًا بالحبّ. أو - بعبارة أُخرى - تنشأ بين الله والإنسان علاقة مُزدوجة مبنيّة على المسافة/الاتّحاد في آن واحد: المسافة بين الخالق والمخلوق، مسافة الإنسان المُتواضع،

---

(١٢) تواتر «التكريم» في رر: ٥ مرّات - «التكريم والاحترام»: ٤ مرّات - «الإكرام والتكريم»: مرّة واحدة - «التكريم والطاعة»: مرّتين اثنتين.

في مكانه الحقيقيّ، والاتّحاد بمُوجب الحُبّ الذي يجمعهما.

فلولا الحُبُّ، لأصبح التواضع عُبوديّة المخلوق لِخالقه، ولولا التواضع، لأصبح الحُبُّ انصهار المخلوق في خالقه. لذلك تمسّك إغناطيوس بالتواضع/ الحُبّ، بالمسافة/ الاتّحاد تمسُّكًا جدليًّا.

تمسّك بهذه الجدليّة، غير أنّه دعا إلى الحبّ، وهو كلمته الأخيرة. ففي «الرياضات الروحيّة»، يعرض كمُشاهدة أخيرة «مُشاهدة لبُلوغ الحبّ»، لا في أثناء الرياضة فحسب، بل أساسًا في الحياة العمليّة التي تتبعها وتمدُّها. وأقرّ - في آخر كلمة من الكتاب - أنّ الإنسان

«يبلغ بسُهولة إلى مخافة الابن التي تتقبّل من الله ربّنا مِلء القبول والحُظوة
لِأنّها والحُبُّ الإلهيُّ أمر واحد» (رر ٣٧٠).

وفي «اليوميّات الروحيّة»، اعترف:

«كُلّ شيء يجعلني أميل نحو الحُبّ الإلهيّ» (ي ر ٢٢٢).

وفي «القوانين التأسيسيّة» أقرّ:

«ينبغي أن يحلّ «الحُبُّ» والرغبة في كُلّ كمال محلّ الخوف من الخطيئة

فينتج عن ذلك تمجيد أعظم وتسبيح أسمى للمسيح خالقنا وربّنا» (ق ت ٦٠٢). فإن كان هذا الحُبُّ أمرًا ممكنًا، فلأنّه مقرون بالتواضع الحقيقيّ، تواضع ملؤه تكريم الله واحترامه وإجلاله وطاعته.

مقدّمة الذات إلى الله

وتُلقي تقدمة الذات لله ضوءها على «التواضع المُحبّ». ففي خِتام «الرياضات الروحيّة»، «يُبادل» الإنسان الله حُبّه «بالأفعال أكثر منه بالكلام» (رر ٢٣٠-٢٣١)، فإنّه يُقدّم تقدمة بحُبّ شديد»:

«خُذ، يا ربّ، واقبل
حُرّيّتي كُلّها

وذاكرتي وعقلي وإرادتي كُلّها
كُلّ ما هُو لي وكُلّ ما هو عندي
أنت أعطيتني ذلك، فإليك أُعيده، يا ربّ.
كُلُّ شيء لك، فتصرّف فيه بكامل مشيتك.
هَبْ لي أن أُحبّك، هب لي هذه النعمة، فهذا يكفيني» (رر ٢٣٤).

لا يَسعُنا هُنا أن نحلّل فِعل التقدمة هذا، بل حسْبنا أن نربطه بِما نحن في صدده. أمّا التواضع، فيتحقّق في أنّ كُلّ ما هو من الله وشه - قوى نفس الإنسان، ما له وما عنده - يعود إليه في فعل تقدمة الإنسان المخلوق الذي يقول للربّ: «اقبل». والله، من جهته، «يأخذ» ذلك لكونه الخالقَ مصدرَ العطايا والهبات، بل وإنّه «يتصرّف بكامل مشيته» في الإنسان الذي يُقدِّم له ذاته.

وأمّا الحُبّ، فيصف التقدمةَ نفسها، فهي بدافع «حُبٍّ شديد». والحُبُّ يختم التقدمة بطلب النِّعمة أن يُحبّ الإنسان الله طلبًا مُتواضعًا، ولا طلب آخر له.

فالإنسان الإغناطيّ هُو حقًّا الإنسان الذي يُقدِّم ذاته إلى الله بتواضع يذهب به إلى أن يتصرّف فيه الله، وبِحُبٍّ يتميّز بأنّه - في آن واحد - هِبة من الله وكذلك دافع يدفع الإنسان إلى فعل التقدمة. فيتأسّس إذًا فعل التقدمة على ازدواج التواضع والحُبّ، أو «التواضع المُحبّ».

ولا يتحقّق ذلك إلاّ بفضل الروح القدس.
«لا يُمكننا أن نستمدّ هذا التعليم إلاّ من مَسحة الروح القدس
ومن الفطنة التي يمنحها الله ربُّنا للمُتكلين على جلاله الإلهيّ» (ق٤١٤).

فالإنسان الإغناطيّ - بِحُبِّه البشريّ له - يدَع الله يتصرّف فيه بحرّيّة كاملة. وفي الوقت نفسه، فإنّ الله يدَع الإنسان يتصرّف - بحُرّيّته البشريّة - في ذاته وفي مصيره، لأنّ الله يُعيده إلى رغبته الدفينة، رغبته في الله ورغبته في إتمام مشيته تعالى. فالإنسان الإغناطيّ مُسلَّم إلى الله وإلى ذاته في آن واحد.

الخُلاصة

لقد عبّر أحد الروحانيّين الإغناطيّين من القرن السابع عشر – هِفِنِسِي Hevenesi – عن هذا الوضع الإنسانيّ المُزدوج، في مُفارَقة صيغةٍ مأثورة لم يفهمها جميع الناس:

«ثِقْ بالله
كأنّ النجاح كُلّه يأتي مِنك أنت
ولا شيء من الله.
ولكن
اعمل مُجتهدًا
كأن لا شيء يأتي منك أنت
وكُلُّ شيء هُو مِن الله وحده».

فإنّ قِمّة الثقة بالله تتجلّى في الاعتماد على الإنسان. وإنّ قِمّة مجهود الإنسان تتجلّى في الثقة بالله. ويتحقّق ذلك في جدليّة بين الله/ والإنسان، بين نعمة الله/ وحُرّيّة الإنسان، بين عمل الله/ ومجهود الإنسان. فكُلُّ شيء من الله/ ومن الإنسان. هذا ما يصبر إليه – في نهاية الأمر – الإنسان الإغناطيّ.

الخاتمة: نشيد إلى الفرح والابتهاج

يتصوّر العديد من الناس أنّ الإغناطيّين عامّة واليسوعيّين خاصّة أناس يتحكّم فيهم عقلهم وإرادتهم ويتغلّب عليهم طابع الجدّيّة والاهتمام. شتّان ما بين هذا التصوُّر الخاطئ، وحقيقة ما حاولنا إظهاره في هذه الدراسة. فحتّى عندما يستخدمون عقلهم – في مثل «الاختيار» – فإنّ تثبيت» الله لهم يتمّ عن طريق «الانبساط» بطابعه الوجدانيّ. وحتّى عندما يستخدمون إرادتهم – في العمل – فإنّ تثبيتها يتمُّ عن طريق الوجدان. وإذ يغلب طابع الجدّيّة والاهتمام في ما يقومون به من التزامات وخدمات، فثمّة طابع الفرح والابتهاج الذي نختم به دراستنا.

فقد لخّص إغناطيوس علاقة الإنسان الإغناطيّ بالله على النحو التالي:

«كانت الأقانيم الإلهيّة تُعانقني في ابتهاج النفس الباطنيّ» (ي ر ٤٤). فإنّ الابتهاج سمة، بل علامة حُضور الله في الإنسان وعمله فيه[١٣].

وقد عرّف «الانبساطَ الروحيّ» بهذه الكلمات:

«أُسمّي انبساطًا... كُلَّ ابتهاج باطنيّ..
يدعو ويجذب إلى الأُمور السماويّة وإلى خير النفس
مُريحًا ومُطمئنًا إيّاها في خالقها وربِّها» (رر ٣١٦).
«مِن شأن الله... في تأثُّراته
أن يمنح الابتهاج الحقيقيّ والفرح الروحيّ» (رر ٣٢٩).

فحيثما الله، فهُناك الفرح والابتهاج. وحيثما الفرح والابتهاج، فهُناك الله. والفرح والابتهاج هما ثمر قيامة «المسيح ربِّنا» (رر ٢٢١، ٢٢٩).

ونستميح القُرّاء إذنًا باستخدام تعبير إيريناوس المأثور: «مجد الله هُو الإنسان الحيّ»، فنُطبِّقه على إغناطيوس بقولنا في الإنسان الإغناطيّ:
مجد الله هو الإنسان الفرِح المُبتهج.

---

(١٣) تواتر الألفاظ في

	رر	ذ ش
الابتهاج (بالإسبانيّة: Alegria – باللاتينيّة: Laetitia)	٩	٨
الفرح (بالإسبانيّة: Gozo – باللاتينيّة: Gaudium)	١١	١